محمد أبو زهرة

# ابن تيمية

حياته وعصره - آراؤه وفقهه

العقلية أن البراهين الرياضية وما يتصل بها تنتج جزماً وقطعاً لا ريب فى ذلك ، لأنها تبنى على البدهيات التى تقرر المساواة الأصلية ، وأن مساوى المساوى يتساوى مع الأول ؛ وأنها فى اتساقها الفكرى تنتهى إلى ذلك دائماً ؛ وأنها مهما تعتقد على المدارك ، فإنها تنتهى إلى مبدأ التساوى الفكرى .

وأما الأدلة المتصلة بالطبيعيات فإنها عند أولئك الفلاسفة تنتج ظناً ؛ لأن أساسها الاستقراء ، والاستقراء قد يكون ناقصاً (١)

والأدلة المتصلة بالإلهيات قد اختلف الباحثون فى شأنها ؛ والمحققون على أنها لا تنتج قطعاً تاماً ، ولكن بترادفها وتكاثرها ، قد يكون منها الجزم واليقين (١) فإذا كان الرازى يترك القرآن وأدلته فى إثبات العقائد معتبراً ذلك دليلا قطعياً لا يعول عليه فيها ، فقد ترك موضع الحزم واليقين إلى متاهات العقول ، وضلال الأفهام ، وذلك ما كان يتحاشاه شيخ الإسلام ابن تيمية .

٢٦٧ — نحن إذن نخالف الرازى فى هذا المقام بالنسبة للمسلم ، فإن المسلم لا يسوغ له أن يطلب عقيدته إلا من القرآن الكريم ، ففيه علم العقيدة الصافى ، والعقول تعمل على إدراكه وفهمه . وما يشتبه علينا نؤوله ونفسره إن كانت الأسباب التأويل والتفسير قائمة ، وتكون الدواعى إلى التأويل مما جاء به التنزيل ، وليس لهوى العقول .

ولكن هل تقف العقول لا تطلب علماً وراء علم القرآن ، وهل يمكن أن يقنع غير المسلم بأحكام القرآن من غير أدلة وراء أدلته . ولنبين الجواب عن السؤال الثانى فإن فيه تمهيداً للأول ، إن غير المسلمين طائفتان : إحداهما طالبة للحق لا تبغى غيره ، وفى القرآن هداية لهذه الطائفة فإنها ليس بينها وبين أن تدرك الحق إلا أن تعلمه بالطريق المستقيم ، وفى القرآن الكريم قصد السبيل ، والهداية إلى الطريق

---

(١) راجع فى هذا كتاب التوحيد للمرحوم الأستاذ الكبير الشيخ حسين والى رضى الله عنه .

القويم بآيات بينات مثبتة لطالب الحق ؛ هادية ؛ وإن السلف الصالح من أصحاب النبي ﷺ آمنوا لما علموا أنه الحق من القرآن نفسه ، فلم يكن ثمة احتجاج فلسفى ولا قياس برهانى ، بل كان هناك حق سائغ قامت البينات على أنه حق سائغ ، ومن كفر من المشركين فلم يكن ذلك لنقص فى الدليل . بل كان لضلال القلب وفساد النفس بالهوى ، ومنهم من كان يرى الحق واضحاً ولكن تمنعه الكبرياء الظالمة من الإيمان « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

الطائفة الثانية من غير المسلمين طائفة كفرت على علم وعاندت وموهت وضلت وأضلت ، لا يهتدون بالحق المجرد ، ولا بالآيات البينات ، وهؤلاء ممن يرجون بالإسلام خبالا ، ولا يريدون إلا فساداً ، لا يكفيهم أن يتلى عليهم القرآن بأدلته ، ولا أن يوجهوا إلى الكون ، وما فيه من آيات مبصرات توضح للعقول طريق الحق ، إنما لا بد أن يقام لهم الدليل ، وأن تساق لهم البراهين ، وإنه لأجل إلزامهم وإفحامهم لامانع من أن يسلك مثل طريقهم ، وأن يخوض الباحث معهم فى نظرياتهم ليلزمهم بالقرآن إن وجد فى ذلك ما يلزمهم .

وعلى ذلك نقرر أنه يسوغ تعلم تلك العلوم ذوداً عن الإسلام وحماية له ، ومجادلة بالتى هى أحسن ، فعساهم يهتدون وعساهم يعتنقون الحق ، ومن استمر منهم على المماراة والمهاترة ، كان فى دراسة أساليبهم ما يفحمه ويلجمه ، فإن لم تؤد المجادلة بحججهم إلى الاقتناع أدت بلا ريب إلى الإلزام والإفحام .

٢٦٨ — وإن تلك الطائفة من المخالفين لا تترك الإسلام فى هدوء ، بل إنها تثير حوله الريب ، فلا بد من مجادلتهم ، ومن أجل ذلك تصدى لهم المعتزلة من قديم الزمان ، فإنه لما فتحت الفتوح الإسلامية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً أفواجاً وجد من المتعصبين من اليهود والنصارى والمجوس من حاولوا أن يفسدوا الإسلام على أهله ، فكانوا يدسون بين أهله أفكاراً بعيدة عنه ، ليتخذوها حجة للطعن فيه ، وكانوا يثيرون الغبار حوله من وقت لآخر ، وقد

نقدنا لابن تيمية :

٢٨١ — هذا كلام ابن تيمية بنصه ، ولا تتسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع والإقرار بأنه فى السماء ، وأنه يستوى على العرش وبين التنزيه المطلق عن الجسمية والمشابه للحوادث .

وأن التأويل بلا شك فى هذا يقرب العقيدة إلى المدارك البشرية ، ولا يصح أن يكلف الناس ما لا يطيقون ، وإذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول فى مكان ، أو التنزيه المطلق ، فعقول الناس لا تصل إلى سعة أفقه إن كان كلامه مستقيما (١)

ومن الغريب أن ابن تيمية يغضب تلك الغضبات الشديدة ضد الذين يؤولون تلك النصوص ، أو على حد تعبيره يفسرونها تفسيراً مجازياً باعتبار معنى (فى السماء) هو العلو المعنوى ، والتقدير للرزق الذى لا يصل إليه أحد من الخلق ، الذى عبر عنه بقوله تعالى : ( وفى السماء رزقكم وما توعدون ) .

وفى الوقت الذى يغضب فيه الغضب الشديد ، ويستنكر ذلك الإستنكار الشديد نراه يعتبر كل الأسماء الواردة فى نعيم الجنة مجازية ، فيقول فى ذلك ( قال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ) فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة . وغير ذلك ونحن نعلم قطعا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه ، كما فى قوله تعالى وأتوا به متشابهاً على أحد القولين أن يشبه ما فى الدنيا وليس مثله ، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصة لا ندركها فى الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكنا لها ، لعدم إدراك عينها أو نظيرها كل وجه (١)

---

(١) الأكليل فى المتشابه والتأويل ص ١٢ .

فإذا كان يجرى المجاز ويقبله فى هذا المقام ، أفلا يكون من السائغ إجراء
المجاز حتى تبعد عن كل نطاق الجسمية ، ومسارب الشك إلى النفس ؛ قد يقول إنه
فى هذا كان متبعاً لما يجىء فى النصوص ، وليس محكما للعقل المجرد فى الشرع المحكم ،
فإنه قد ورد عن النبى حكايته عن ربه أنه قال : «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين
رأت ولا أذن سمعت» وابن عباس قد نقل عنه أنه قال ليس فى الدنيا مما فى الجنة
إلا الأسماء ، فكان النص موجوباً لأعمال المجاز ؛ ولم يرد فى مسألة الصفات عن
الصحابة والتابعين نص لصرف اللفظ من الحقيقة إلى المجاز ، ولو قلنا إن العقل هو
الذى يقيد ، لكان ذلك سيطرة للعقل على نصوص الشرع ، وهذا منطق ابن تيمية .

ولكننا نرى أن الصحابة إذا كانوا قد سكتوا فى هذا الأمر فلم ينقل عنهم
نفى للتأويل ، وإذا كانت العبارات المروية تدل على التفويض ، فليس فى العبارات
المرويه إقرار للجهة .

وفوق ذلك إن ما ساقه ابن تيمية من النصوص المجاز فيها واضح حتى كأنه
الحقيقة مثل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ، ومثل قوله تعالى
« وفى السماء رزقكم وما توعدون » .

وبعض هذه النصوص الدلالة على أن الله فى السماء دلالة ضمنية لا صريحة
مثل إشارة النبى ﷺ فى خطبة الوداع عندما قال « اللهم فاشهد » .

ابن تيمية وابن الجوزى :

٢٨٢ — وهنا يثار نظر هل ما قرره هو عقيدة السلف الصالح لا ريب فى
ذلك ؟ لاشك أنه قد جاءت عبارات تؤدى إلى ما يقول ، ولكن ألم يرد عبارات
أخرى قد تفيد ولو ضمنا قبول التفسير المجازى فى هذا المقام أو على الأقل
السكوت التام .

إن ابن تيمية إذ يقرر ما يراه فى هذا الموضع لم يكن جديداً فيه ، فقد سبقه
غيره بتقريره ، ولكن السابق لم يسعف ببيان قوى كبيان ابن تيمية ، ولم يسعف
بسعة حاضرة ، كبديهته رضى الله عنه .

فى ذلك متبع ، ومن لم يسلك مسلكه مبتدع ؛ وإن ما يرويه عن السلف صدق لامرية فيه ، وليس لأحد أن يدعى أن له علم ابن تيمية بالكلام المأثور عن السلف الصالح من عهد الصحابة إلى عهد الأئمة المجتهدين ؛ ولكن هل العبارات المروية عن أولئك الأئمة الأعلام صريحة فى إثبات جهة العلو ، والاستواء بمعنى من جنس معنى الجلوس ، إن العبارات المروية عنهم إلى التفويض أقرب منها إلى التفسير أو إبداء الرأى فى معنى معين ؛ ولنعتمد على أقربها ذكراً ، وهى العبارات المأثورة عن مالك رضى الله عنه ، وهى الاستواء معلوم ، والكيف مجهول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، إن العبارات بفحواها ومعناها لا تدل على أن الاستواء من جنس الجلوس الذى نعلمه ؛ إنه بلا شك معلوم بالذكر فى القرآن والإيمان بما جاء بالقرآن واجب ؛ ولكنه بعد ذلك نهى عن السؤال عنه ، واعتبره بدعة ؛ أليس الكلمة فى ذاتها دالة على التوقف لا على النص . وإن ابن الجوزى يحكى عن السلف التوقف ، ولا يحكى عنهم البت بقول فى الموضوع ؛ ويعتبر الإمام أحمد متوقفاً .

وإنه قد روى أن الإمام أحمد رضى الله عنه أنه لما سئل عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم قال نؤمن بها ونصدق بها ، ولا كيف ولا معنى ، ولقد روى الخلال فى مسنده عن الإمام أحمد أنهم سألوه عن الإستواء فقال : «استوى على العرش كيف شاء وكما شاء وبلا حد ولا صفة يبلغها واصف» وهذا تفويض وتنزيه ؛ وليس فيه تخريج للفظ على الظاهر ولا غير الظاهر .

بل أنه قد روى حنبل ابن أخى الإمام أحمد أنه سمعه يقول : «احتجوا على يوم المناظرة ، فقالوا تجىء يوم القيامة سورة البقرة ، وتجىء سورة تبارك ، قال : فقلت لهم إنما هو الثواب . قال الله جل ذكره «وجاء ربك والملك صفاً صفاً» وإنما تأتى قدرته (؟) ؛ وهذا بلاشك تفسير للمجىء بمجاز الحذف وهو ظاهر ؛ ولكن ابن تيمية رضى الله عنه يقول المجىء مجىء الله ! !

(؟) من الواجب على المؤلف أن يعرف حدود تمكن الانسان أن يراجع

ولقد ذكر ابن حزم الظاهرى فى الفصل أن أحمد بن حنبل قال فى قوله تعالى « وجاء ربك » إنما معناه « وجاء أمر ربك » .

وإنا نميل بلاشك إلى أن بعض السلف قد توقفوا فى العبارات المأثورة عنهم فى معنى الاستواء ، ولم يفسروا على الظاهر ، كما يقول ابن تيمية ، ونميل إلى أنهم فى المجاز الظاهر مثل « وجاء ربك » فسروا بالمجاز ؛ وخرجوا عليه ؛ لأنه واضح . وقبل أن ننتهى من الكلام فى الصفات نتكلم فى موضوعين لهما بالصفات صلة وثيقة ، وهما المتشابه والتأويل ، والكلام حول القرآن وكونه مخلوقاً أو غير مخلوق .

## المتشابه والتأويل

٢٨٧ — إن الكلام فى تأويل المتشابه له اتصال وثيق بالكلام فى الصفات والوحدانية ، فالكلام فى أحدهما يلازمه الكلام فى الآخر . والأساس فى هذا الموضوع هو أن كلمة متشابه قد وردت فى القرآن الكريم فى مقابل آيات محكمات ، فقد قال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وإن جمهور المفسرين على أن الآيات المتشابهات فى كتابه الكريم هى الآيات المتعلقة بالصفات والأفعال المضافة إليه سبحانه ، من مثل : « يد الله فوق أيديهم » ومن مثل : « الرحمن على العرش استوى » ، ومثل : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » ولقد قال عدد كبير من المفسرين إنه لا متشابه فى القرآن إلا أخبار الغيب كصفة الآخرة وأحوالها .

ولقد اتفق المفسرون على أن فى الآيتين روايتين مشهورتين بالنسبة للوقف ، فقد روى الوقف على كلمة الله فى قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله » وهذه

رأى المتكلمين فى التأويل :

**٢٩٣** — ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر رأى غير ابن تيمية فى المتشابه من القرآن ، ونذكر هنا رأى المتكلمين الذين شن عليهم ابن تيمية الغارة ، ثم رأى الغزالى .

لقد علمنا رأى السلف ؛ وهو الأخذ بالظاهر كما يقول ابن تيمية ، ويجوز أن بعضهم كان يسلك ذلك المسلك ، أو التوقف كما يرى غير ابن تيمية كابن الجوزى وغيره من العلماء بالآثار ، وكذلك يقول علماء الكلام إن ذلك مسلك السلف ؛ وأما الخلف من المتكلمين ، فيتأولون ، فيرون أن الآيات المتشابهة الخاصة بالصفات تؤول بما يتفق مع التنزيه ، فيؤلون اليد بالنعمة أو بالقوة والنزول بنزول النعمة أو الأمر على حسب المقام ؛ والاستواء بمعنى الاستيلاء إلى آخره .

ولقد ذهب بعض العلماء إلى رأى بين الخلف والسلف ، ففرق بين النص المتشابه الذى إذا صرف عن ظاهره يتعين فيه معنى واحد على طريق المجاز ، وبين مايحتمل أكثر من معنى واحد من المعانى المجازية ، فأوجب تأويل الأول دون الثانى ، ولاشك أن التأويل واضح فى القسم الأول ، بل يكاد يكون هو المتبادر إذا تعين المعنى المجازى ، وأما الثانى فإنه إن لم يترجح أحدها ، فإنه لامسوغ للتأويل .

ولقد قال سعد الدين التفتازانى موجهاً مسلك الخلف فى شرح المقاصد مانصه : « ومنها ماورد به ظاهر الشرع ، وامتنع حملها على معانيها الحقيقية مثل الاستواء فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » واليد فى قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، والعين فى قوله تعالى : « ولتصنع على عينى » ، « وتجرى بأعيننا » فعن الشيخ أن كلا منها صفة زائدة ، وعلى الجمهور وهو أحد قولى الشيخ إنها مجازات فالاستواء مجاز عن الاستيلاء ، وتصوير لعظمة الله تعالى ، واليد مجاز عن القدرة والوجه عن الوجود ، والعين عن البصر . . . ومعنى تجرى بأعيننا أنها تجرى بالمكان المحوط بالكلاءة والعناية والحفظ والرعاية ، يقال فلان بمرأى من الملك

التقديس معناه أنه إذا سمع اليد والأصبع ، وقوله ﷺ : « إن الله خمر آدم بيده ، وأن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » فينبغى أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين ( أحدهما ) هو الوضع الأصلى ، وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب ، واللحم والعظم جسم مخصوص وصفات مخصوصة ، وأعنى بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو إلا بأن يتنحى عن ذلك المكان ، وقد يستعار هذا اللفظ أعنى اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلا ، كما يقال البلدة فى يد الأمير ، فإن ذلك مفهوم ، وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلا ، فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق قطعاً ويقيناً أن الرسول لم يرد بذلك جسما هو عضو مركب من لحم ودم وعظم ، وأن ذلك فى حق الله تعالى محال ، وهو عنه مقدس ، فإن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم ، فإن كل جسم مخلوق ، وعبادة المخلوق كفر ، وعبادة الصنم كانت كفراً لأنه مخلوق ، فمن عبد جسما فهو كافر بإجماع الأئمة ، السلف منهم والخلف . . . ومن نفى الجسمية عنه وعن يده ، وأصبعه فقد نفى العضوية واللحم والعصب ، وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث ليعتقد بعده أنه معنى من المعانى ليس بجسم ولا عرض فى جسم ، يليق ذلك المعنى بالله تعالى ، فإن كان لا يدرى ذلك ولا يفهم كنه حقيقته فليس عليه فى ذلك تكليف أصلا ، لمعرفته تأويله ، ومعناه ليس بواجب عليه ، بل واجب عليه ألا يخوض كما سيأتى .

« مثال آخر إذا سمع الصورة فى قوله عليه السلام « إن الله خلق آدم على صورته » وقوله « إنى رأيت ربى فى أحسن صورة » فينبغى أن يعلم أن الصورة اسم مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة فى أجسام مؤلفة مرتبة ترتيباً مخصوصاً مثل الأنف والعين والفم والخد ، وهى أجسام ، وهى لحوم ، وعظام ؛ وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة فى جسم ، ولا هو ترتيب فى أجسام كقولك عرف صورته وما يجرى مجراه ، فليتحقق كل مؤمن أن الصورة

ويقول رضى الله عنه : « ومن اعتقد أن فى النذر للقبور نفعاً أو أجراً فهو ضال جاهل » ثم يقرر أن ذلك نذر فى معصية « وأن من يعتقد أنها باب الحوائج إلى الله ، وأنها تكشف الضر ، وتفتح الرزق ، وتحفظ المصر فهو كافر مشرك يجب قتله[1] » .

وترى من هذا أن ابن تيمية لا يعتقد أن للموتى أى تأثير فى الأحياء ، وأنه لا يصح أن يوجه إليهم أى دعاء ، وأن نداءهم أو الاستغاثة بهم ضلال ، وأن اعتقاد نفعهم ، وأنهم يفتحون باب الحوائج شرك يسوغ القتل ؛ لأنه يعتبر ردة فى نظره ، ونحسب أنه لو اقتصر على أنه ضلال ، ما كان فى ذلك تطرف ولا مغالاة ، أما الحكم بأنه كفر فأحسبه مغالاة ، دفعته إليها حدة الجدال .

زيارة قبور الصالحين :

٣٢٩ — وننتقل بعد هذا إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين وهو الأمر الثالث ؛ بل الأمر الذى أثار الضجة الشديدة هو والاستغاثة بالنبى ﷺ ؛ فقد أثار ذلك عجاجة حولها ، وكان هو يجادل ويلاحى وحده فى الميدان ، وقد فقد فى آخر الأمر النصير من الأمراء ، حتى زج به فى غيابة السجن .

فإنه رضى الله عنه يرى أن زيارة القبور مطلقاً للاتعاظ جائز ، بل مندوب إليه ؛ لأنه عبرة واعتبار ، وتذكرة واستبصار ، أما القصد إلى زيارة قبر رجل صالح بعينه ، أو نبى بعينه فإن ذلك لا يجوز ؛ وقد خالفه غيره كأبى حامد الغزالى وأبى محمد بن قدامة المقدسى لعموم قوله ﷺ « زورا القبور » .

والأساس الذى بنى عليه المنع هو الأساس الذى بنى عليه عدم دعاء الميت ؛ لأنه يرى أن ذلك يؤدى إلى الوثنية والشرك ؛ ولأن النبى ﷺ نهى عن أن يتخذ قبره مسجداً ، حتى لا يزار ، فقد جاء فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ قال فى مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥٥

الجمهور الأعظم من المسلمين إلى يومنا هذا ؛ فإنه يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فإن جاهى عند الله عظيم » . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى » .

ولكن ابن تيمية يقول فى الخبر الأول : « هذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث مع أن جاهه عند الله أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين [1] » .

ويقول فى الحديث الثانى : « ضعيف والكذب ظاهر عليه مخالف لدين المسلمين ، فإن من زاره فى حياته لو كان مؤمناً كان من أصحابه ، ولاسيما إن كان من المهاجرين المجاهدين معه ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه [2] » .

وهكذا يستطرد ابن تيمية فى الرد على مخالفيه فى عنف ، وشدة ، ويستشهد بأقوال الأئمة الأربعة مثل إجماعهم على عدم مس قبر النبى ﷺ كما ذكرنا .

٣٣٢ — هذه إحدى القضايا التى أثار غبارها ابن تيمية فى قوة وعنف ، وقرع بها مشاعر معاصريه قرعا شديداً وأزعجهم بها إزعاجاً شديداً .

والأساس الذى بنى عليه ابن تيمية قوله هو إفراد الله وحده بالعبادة ، والبعد عن الوثنية وكل ذرائعها ؛ ثم حمل نصوص النهى عن الوثنية على زيارة القبور ، وخصوصاً قبر الرسول .

نحن قد نميل إلى قوله فى زيارة قبور الصالحين أما زيارة قبر النبى ﷺ فإنا نخالفه فيه مخالفة تامة ، وذلك لأن الأساس الذى بنى عليه قوله هو الوثنية ، فإن كان يريد أن زيارة القبر الشريف هو فى ذاته نوع من الوثنية فهو غريب ، فإنك كما تفسره بأنه وثنية يصح أن تفسره بأنه وحدانية ومبالغة فيها ؛ لأن زيارة قبر نبى

---

(١) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٠٦ (٢) الكتاب المذكور ص ٥٧

الوحدانية استشعار لحقيقتها ، وتقديس لمعناها ؛ فإن التقديس الذى يتصل بالرسل إنما هو من فكرتهم ، وهدايتهم فالتقديس لمحمد تقديس للمعانى التى دعا إليها وحث عليها ؛ وكيف يتصور من مؤمن يعرف حقيقة الدعوة المحمدية أنه يكون مستشعراً لأى معنى من معانى الوثنيـــة ؛ وهو يستعبر العبر ، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة .

وإذا كان خوف ابن تيميـة من أن يؤدى ذلك إلى الوثنية بمضى الأعصار والدهور ، فإنه خوف فى غير مخالف ؛ لأن الناس كانوا يزورون قبر الرسول إلى أول القرن الثامن ، ثم بتوالى العصور من بعده إلى يومنا هذا . ومع ذلك لم ينظر أحد إليه نظرة عبادة ، أو وثنية ؛ نعم تفرط من العامة عبارات كالتوسل والواقع فهل نحمل بجاهه ، أو الاستشفاع بشفاعته وهى عبارات لا وثنية فيها ، بل تؤول بأقرب الكثير من الزائرين تأويلاتها ؛ ويفهم الجاهلون ، ولا تمنع تلك الذكريات العطرة لأجل عبارات بالجدران والشبابيك من العوام يحسن إرشادهم لا منعهم من الزيارة ، وتفهيمهم لا تكفيرهم ، وإن الله سبحانه قد صان التوحيد إلى يوم القيامة ؛ وقد ذكر ذلك محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر حياته ، وبشر به المؤمنين ؛ وهو أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرض العرب ؛ فليس لابن تيمية أن يخاف على التوحيد من بعد .

٣٣٣ — وإن الآثار عن السلف الصالح تثبت أنهم رضى الله عنهم كانوا يتبركون بزيارة قبره الشريف ، ولم يجدوا فيه وثنية ولا ما يشبهها . ألم يكن الشيخان الجليلان أبو بكر وعمر حريصين على أن يدفنا بجوار جثمانه الكريم صلى الله عليه وسلم ولم يريا فى ذلك الحرص وثنية أو ما يشبه الوثنية .

ولقد روى ابن تيمية رضى الله عنه أن السلف الصالح رضوان الله تبارك وتعالى عليهم كانوا يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم كلما مروا على الروضة الشريفة ، قال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء إلى القبر ، فيقول السلام على النبى ﷺ ، السلام على أبى بكر ، السلام على أبى ، ورؤى واضعاً يده على مقعد النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه .

كان شرف الكعبة أنها بيت الله وأول بيت وضع للناس، وشرف المسجد الأقصى؛ لأنه مسجد الأنبياء السابقين وموضع الإسراء، ومنه كان الإعراج؛ فماذا يكون شرف المسجد المحمدى؟ إنما شرفه من إقامة الرسول به وكونه كان مكان النور المحمدى، والهدى الإسلامى. وإن شد الرحال إليه ليرى الراءى موطن الوحى، ومنازل النبوة؛ وإن تلك الذكريات كما تتحقق فى المسجد الشريف تتحقق فى الروضة الشريفة، بيد أن هذا يصلى فيه، وتلك لا يصلى فيها، لموضع النهى من أن يتخذ القبر مسجداً، فيقتصر على مورد النهى.

٣٣٥ — يسأل ابن تيمية لماذا اختار النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون مدفنه فى مسكنه وهو حجرة عائشة رضى الله عنها؟ ويختار الجواب، وهو ألا يتخذ قبره مسجداً؛ ولا يكون موضع عبادة، وقد يكون ذلك جواباً سليما؛ أو هو جزء من جواب صحيح، والجزء الثانى أن يكون قبره قريباً من مسجده؛ وأن يكون قبره معروفا غير مجهول؛ فإنه لو دفن بالبقيع فى الصحراء فقد يجهل موضعه، ويكون بعيداً عن مسجد؛ أما إذا دفن فى حجرة عائشة رضى الله عنها، فإنه يكون قريباً من مهبط الوحى، ومبعث الدعوة؛ ومكان التنزيل.

وبعد فإنا نخالف ابن تيمية فى منعه التبرك بزيارة قبر الرسول والمناجاة عنده، وعدم الندب إليها، وإن التبرك الذى نريده ليس هو العبادة أو التقرب إلى الله بالمكان، إنما التبرك هو التذكر والاعتبار والاستبصار. أى امرىء مسلم علم حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته، وهدايته، وغزواته وجهاده، ثم يذهب إلى المدينة، ولا يحس بأنه فى هذا المكان كان يسير الرسول، ويدعو ويعمل، ويدبر ويجاهد؛ أو لا يعتبر ولا يستبصر، أو لا يحس بروحانية الإسلام؛ وعبقرية النبى الأمين أو لا تهز أعطافه محبة الله ورسوله، والأخذ بما أمر الله به؛ والانتهاء عما نهى عنه، إلا من أعرض عن ذكر الله، ولم يكن من أولى الأبصار، إن الزيارة إلى قبر الرسول هى الذكرى والاعتبار؛ والهدى والاستبصار، والدعاء عند القبر، دعاء القلب خاشع؛ والعقل خاضع؛ والنفس مخلصة، والوجدان مستيقظ، وإن ذلك أبرك الدعاء.